يعسر على اكبر خياط ان يأتي بمثلها . وكذلك كان يأخذ ابرة ويدخل فيها خيطاً بمنتهى السرعة ويخيط خياطة متقنة نظير امهر الخياطات . ثم يتناول برجليه غدارة فيحشوها بالذخيرة ويطلقها في الفضاء . وكان يقدح بزناده فيشعل به غليونه ويتدئ بالدخين . ويأخذ لولباً يثقب به سدادة زجاجة من المشروب ويفرغها في كأس ويشربها على مخب مشاهديه الى غير ذلك من الاعمال الدقيقة التي كان يعملها وقد ضربنا عنها صفحاً [1]

فيستنتج مما تقدم ان تلك البراعة المدهشة باستخدام عضو من الاعضاء في اعمال ليست هي من وظائفه مما يبرهن على ان التمرين المستديم يبدل بعد زمان طويل حركة ذاك العضو ويغير الشكل المتصف به . ذلك ان ابهامي هذا المسكين الناقص التركيب كانا اطول بكثير واشد ليونة منهما في طبيعتهما الاعتيادية بحيث كان هذا التكيف المكتسب بالتمرين سبباً لاتخاذ الرجلين في مقام الذراعين اللتين افتقدتهُ اياهما الطبيعة

ارمينية والارمن

يودُّ كثيرون من العثمانيين ان يعرفوا موقع ارمينية وتاريخها وعدد سكانها من الارمن ومن غيرهم . فاقتطفنا هذه المقالة مما كتبهُ بعضهم حديثاً في هذا الموضوع كالسر تشارلس ولسن والمستر تشارلس نسبت ومحرر كتاب السياسة لسنة ١٩٠٩ وغيرهم من الثقات

كانت ارمينية مملكة مستقلة وعُرفت بهذا الاسم في زمن داريوس الملادي قبل المسيح بخمس مئة سنة وتقلبت عليها الاحوال قبل ذلك وبعدهُ فكانت تستقلُّ تارةً وتخضع لغيرها اخرى كما سيجيء . اما تاريخها قبل داريوس فيوصلهُ الارمن الى الفي سنة قبل المسيح

وهي بلاد جبلية في اعالي وادي دجلة والفرات والارس وكورا طولها نحو ٦٠٠ ميل وعرضها نحو ٤٠٠ ميل فتكاد مساحتها تماثل مساحة بلاد فرنسا . واكثرها جبال تتفرع عن سطح البحر ٨٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ قدم وفيها جبل اراراط الذي يقال ان سفينة نوح استقرت

(1) ولا بد من ان يتذكر بعض اهالي القاهرة الفتاة الحلبية التي قدمت الى مئة العاصمة من مدة اربع سنوات وعرضت نفسها في جهة روض الفرج ليشاهدها الناس . فكانت بداءتها في نهاية القصر لم تكن لها سوى قطعة من قماش بغير عصد ولا مرفق ولها اصابع غير كاملة العدد ولا التجسم . وكانت تستخدم رجليها في الخياطة والكنس وغسل الثياب وغير ذلك . وتتناول بها آلات الطعام من الملعقة والشوكة وتاكل بها وتأخذ فنجان القهوة وكوب الماء فتشربه كذلك

عليه وعلوه نحو ١٧٠٠٠ قدم وفيها سهول عالية يبلغ ارتفاع بعضها عن سطح البحر ٦٠٠٠ قدم . واودية واسعة بين جبالها تجري فيها الانهار فتروبها قبلما تضيق مجاريها . وفيها بحيرتان كبيرتان بحيرة وان وبحيرة ارمية ومياههما ملحة وثلاث بحيرات صغيرة . والاودية واسعة شديدة الخصب والجبال قليلة الشجر ولكنها مغطاة بالنبات

ويشتد البرد شتاء والحر صيفاً في الجهات الشمالية الشرقية فتختلف درجة الحرارة بين ٢٢ تحت الصفر بميزان فارنهيت و ٨٤ فوق الصفر وهو اختلاف كبير جداً ولكن الصيف قصير جاف . واما الجهات الجنوبية الغربية فحرها معتدل وبردها معتدل

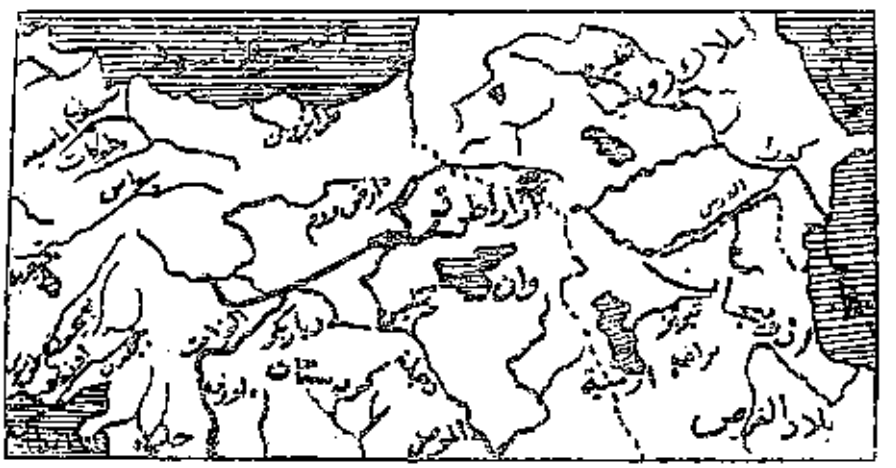

بلاد ارمينية باقسامها الثلاثة

والبلاد كثيرة المعادن من الفضة والرصاص والحديد والزرنيخ ونبت فيها كل نباتات المنطقة المعتدلة والباردة كالكرم والقمح والارز والقطن . ومراعيها واسعة تسوم فيها قطعان الاكراد وانعامهم ويكثر السمك في انهارها وبحيراتها

وكان القدماء يقسمونها الى ارمينية الكبرى وهي تشمل نصفها الشرقي وارمينية الصغرى وهي ما وقع منها غربي الفرات

وهي مقسومة الآن الى ثلاثة اقسام قسم للفرس وهو بلاد اذربيجان وعدد سكانه نحو مليون نفس الارمن منهم نحو ١٥٠ الفاً وعاصمته مدينة تبريز وعدد سكانها نحو ٢٠٠ الف نفس

وقسم للروس وهو يشمل ولايات اروان واليصابات بول والقارص وجانب من تفليس وعدد

سكانه نحو ثلاثة ملايين نفس وعدد الارمن فيه وفي سائر بلاد الروس مليون و ١٧٣ الفاً

وقسم لتركيا وهو الاكبر ويشمل ارمينية الصغرى وجانباً من ارمينية الكبرى اي ارض روم وديار بكر وبتليس ووان وخربوط وسواس وحلب وادنه وطرابزون

وعدد الارمن في هذه الولايات نحو مليون نفس وعدد سائر المسيحيين نحو ٦٤٥ الفاً وعدد اليهود ١٠٠ الف نفس وعدد المسلمين نحو اربعة ملايين ونصف . ولا يزيد الارمن على غيرهم من السكان الاَّ في سبعة اقضية من ١٥٩ قضاء . واكثرهم في ارض روم ووان وبتليس وخربوط وديار بكر . وسكان هذه الولايات ٢٦٤٢٠٠٠ والارمن فيها ٦٣٣٢٥٠ او نحو ٢٤ في المئة وسائر المسيحيين ١٧٩٨٧٥ او نحو ٧ في المئة والمسلمون ١٨٢٨٨٧٥ او نحو ٦٩ في المئة . والاقضية السبعة المشار اليها آنفاً عدد سكانها ٣٨٢٣٧٥ والارمن منهم ١٨٤٨٧٥ اي ٦٥ في المئة والمسلمون ٩٦٥٠٠ اي نحو ٣٥ في المئة

فالارمن قلال في كل الولايات العثمانية بالنسبة الى غيرهم من السكان ولا يزيدون على غيرهم الاَّ في بعض الاقضية القليلة السكان كما تقدم

وعدد الارمن في كل المسكونة نحو ثلاثة ملايين نفس ففي الولايات الارمنية العثمانية نحو مليون نفس وفي غيرها من الولايات العثمانية نحو نصف مليون وفي روسيا اكثر من مليون وفي بلاد الفرس نحو ١٥٠ الفاً وفي سائر البلدان نحو ٢٥٠ الفاً . فلا يحل عاقل انهُ يمكن جمعهم من كل اقطار المسكونة وارجاعهم الى بلادهم وطرد سائر السكان منها لترجع ارمينية مملكة مستقلة كما كانت في سالف عهدها . ولا نظن ان عقلاء الارمن يفكرون في ذلك على الاطلاق لانهُ ضرب من المحال

وتاريخ ارمينية مرتبط بجغرافيتها الطبيعية فان انفصال اوديتها عن سائر البلدان ولاسيما في فصل الشتاء سهَّل على سكانها الخروج عن طاعة الملوك الذين كانت خاضعة لهم ولاسيما اذا كانوا ضعافاً . ووعورة جبالها عوَّدت رجالها الشدة وغرست في نفوسهم الانفة شأن كل سكان الجبال المنيعة

ولكن ارمينية وسط بين الشرق والغرب فجر فيها الغازون شرقوا او غربوا . لاسيما وان منها يوصل الى مروج اسيا الصغرى محط رحال غزاة المشرق من قديم الزمان . وكان اسمها قديماً بياناس وكانت عاصمتها ذمباس وفي مدينة وان ، وقد وجدت فيها آثار ملوكها الاقدمين واول ملك منهم سردورس وكان قبل المسيح بنحو ٨٣٣ سنة وكتاباتهُ منقوشة بالقلم المسماري بلغة لاسامية ولا آرية . وتلاه ملوك تغلبوا على الآشوريين والحثيين ثم تغلب عليهم تغلث

فلاسر ملك اشور سنة ٧٤٣ قبل المسيح وبعد مئة سنة رحل اليها الارمن الآريون من المشرق واقاموا فيها ومن ثمَّ يبتدئ تاريخ الارمن . وبقيت ارمينية في حوزة ملوك مادي وعليها مرازبة من اهلها يتوارثون الولاية خلفاً عن سلف الى ان استولى الاسكندر المكدوني على مملكة داريوس فولَّى على ارمينية الولاة من الفرس

ولما دارت الدائرة على الملك انطيوخس الكبير سنة ١٩٠ كان على ارمينية الكبرى والٍ اسمهُ ارداشس وعلى ارمينية الصغرى والٍ اسمهُ زادرياذس فاستقلَّ هذان الواليان وكان ذلك بموافقة رومية ومؤازرتها وبنى الاول مدينة ارتكساتا وجعلها عاصمة مملكته . واعظم خلفائهِ فيها الملك تغران الذي كان سنة ٩٤ الى ٥٦ قبل المسيح صهر الملك مثرداتس العظيم . وقد بنى تغران هذا مدينة سماها تغرانوسرتا جعلها مثل بابل وينوى واسكن فيها اناساً من اليونان وغيرهم من الاسرى ثم لما لجأ اليهِ حموهُ مثرداتس من وجه الرومانيين نشبت الحرب بينهُ وبينهم فقهروهُ ولكنهم ابقوهُ في بلادهِ خاضعاً لرومية وضربوا عليهِ الجزية

ثم تنازع الفرس والروم على ارمينية الى ان اقتسموها بينهم سنة ٣٨٥ للميلاد وكانت قد تنصرت على يد القديس غريغوريوس المنير فاضطهد مرازبة الفرس الارمن واضطروهم الى العصيان فنشبت الثورات في البلاد واستقلَّ امراؤها باقطاعاتهم الى ان قام هرقل وردَّهم الى مملكة الروم . ثم جاء العرب ودوخوا مملكة الفرس واستولوا على ارمينية واقاموا الولاة عليها منهم ومن الارمن الى زمن الخليفة المعتمد سنة ٨٨٥ (٢٧٢ هـ) فنصَّب عليهم ملكاً منهم وهو بغراتداشود الاول فتوالى الملوك من نسلهِ على ارمينية الى سنة ١٠٧٩ ثم ان الخليفة المقتدر نصَّب كاجيج ارزروتيان ملكاً على وان وذلك سنة ٩٠٨ (٢٩٦) فتوالى الملوك من نسلهِ عليها وعلى سواس الى سنة ١٠٨٠ . وانشأ آل بغراند دولة في القارص بقيت من سنة ٩٢٢ — ١٠٠٠

وظلت البلاد من ديار بكر الى ملاسجرد تحت سيادة العرب فالروم فالسلاجقة من سنة ٩٨٤ الى سنة ١٠٨٥ . فهجرها كثيرون من الارمن واستوطنوا القسطنطينية وتزوجوا في الروم واندمجوا في جيوشهم واغتصب واحد منهم سرير الملك سنتين وصار اثنان منهم امبراطورين وصار بعضهم من مشاهير القواد . وغزا باسيليوس الثاني ملك الروم ارمينية سنة ٩٩١ وهادنهُ واليها الحسن بن مروان عشر سنين ثم غزاها سنة ١٠٢١ واخذ سواس وانزل فيها الارمن وكان غرضهُ ان يقوي حصون ارمينية كلها ويضع فيها المقاتلة من جنوده لكن خلفهُ لم يعبأ بتحصين البلاد بل يرد اهلها عن بدعتهم الدينية على زعمهِ

وتعاقب الروم والسلاجقة على البلاد يتغلبون في اهلها ويجرعونهم غصص المنون الى ان استولى عليها الب ارسلان سنة ١٠٧١ فصارت جزءًا من بلاد السلاجقة الى ان تجزأت سنة ١١٥٧ بين العرب والاكراد والسلاجقة ثم جاء المغول سنة ١٢٣٥ فاكتسحوها

وخلاصة ما ذكرهُ ياقوت الحموي في معجم البلدان عن بلاد ارمينية انها كانت في عهده (اوائل القرن السابع) كثيرة الممالك . ونقل عن ابن واضح الاصبهاني انهُ كتب لعدة من ملوكها واهالي المقام بارمينية ولم يرَ بلداً اوسع منهُ ولا اكثر عمارة . وذكر ان عدة ممالكها مئة وثمان عشرة مملكة منها مملكة السرير وهي ثمانية عشر الف قرية وارزان وفيها اربعة آلاف قرية واكثرها لصاحب السرير وسائر الممالك فيما بين ذلك تزيد على اربعة آلاف وتنقص عن مملكة صاحب السرير

قال وسئل بعض علماء الفرس عن الاحرار الذين بارمينية لمَ سموا بذلك فقال هم الذين كانوا ببلاء بارض ارمينية قبل ان تملكها الفرس فاعتقوهم لما ملكوا واقرُّوهم على ولايتهم فسموا احراراً لشرفهم

وذكر ياقوت مدن ارمينية مدينة مدينة وتاريخها من اول نشأتها الى عهده في اوائل القرن السابع للهجرة فقال في الكلام على تفليس مثلاً انها مدينة قديمة عليها سور عظيم وبها حمامات شديدة الحر لا توقد ولا يستقى لها ماء فانها عيون تنبع من الارض حارة . افتتحها المسلمون في ايام عثمان بن عفان . فان حبيب ان مسلمة سار الى ارمينية فافتتح اكثر مدنها فلما توسطها جاءهُ رسول بأنهُ انصلح واماناً يكتبهُ لهم فكتب لهم اماناً يقول فيهِ «من حبيب بن مسلمة لاهل تفليس بالامان على انفسهم وبيعهم وجوامعهم وصلواتهم ودينهم على الصغار والجزية على كل بيت دينار ولنا نصيحتكم على اعداء الله ورسوله ما استطعتم وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حسان ضعام اهل الكتاب فان اتيتم واقمتم الصلاة فاخواننا في الدين والاَّ فالجزية عليكم وان عرض للمسلمين شغل عنكم فنهضكم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم . هذا لكم وهذا علينا شهد الله وملائكتهُ وكفى بالله شهيداً»

والمرجح عندنا ان الكتاب موضوع وضعهُ احد الكتَّاب للارمن كما وضع غيرهم كتباً مثلهُ زعموا انها كتب امان من الصدر الاول . ولكن ذكر ياقوت لهُ في صدر القرن السابع للهجرة يدلُّ على قدمهِ وعلى ان الارمن كانوا في ذلك العهد يطالبون ملوك المسلمين بهِ

ثم قال ياقوت ان تفليس بقيت بايدي المسلمين واسلم اهلها الى ان خرج في سنة ٥١٥ هجرية من الجبال المجاورة لتفليس جيل من النصارى يقال لهُ الكُرْج في جمع وافر واغاروا على

ما يجاورهم من بلاد الاسلام وكان الولاة منها قبل الملوك السلجوقية قد استضعفوا لما تواتر عليهم من اختلاف ملوكهم وطلب كل واحد الملك لنفسه فواقع الكرج ولاة ارمينية وقائع كان اخرها ان استظهر الكرج وهزموا المسلمين ونزلوا على تفليس فحاصروها حتى ملكوها عنوة واستقروا بها واجملوا السيرة مع اهلها وجعلوهم رعية لهم ولم تزل الكرج كذلك وولاة الامر مشتغلون عنهم بشرب الخمور وارتكاب الفجور حتى قصدهم جلال الدين منبرکي بن خوارزم شاه في شهور سنة ٦٢٣ وملك تفليس وقتل الكرج كل مقتلة وجرت لهُ معهم وقائع كان ينتصر عليهم في جميعها ورتب فيها والياً وعسكراً ثم اساء الوالي السيرة في اهلها فاستدعوا ممن بقي من الكرج وسلموا اليهم البلد وخرج عنهُ الخوارزمية هاربين الى صاحبهم وخاف الكرج ان يعاودهم خوارزم شاه فلا يكون لهم بهِ طاقة فاحرقوا البلد وذلك سنة ٦٢٤ وانصرفوا فهذا آخر ما عرفت من خبرهم

وقال في الكلام على ارض روم (واسمها فيهِ ارزن الروم) انها بلدة من ارمينية اهلها ارمن ولها سلطان مستقلٌ بها مقيم فيها وولاة ونواحٍ واسعة كثيرة الخيرات واحسان صاحبها الى رعيتهِ بالعدل فيهم ظاهر

وقال في الكلام على خلاط في من فتوح عياض بن غنم سار من الجزيرة اليها فصالحهُ بطريقها على الجزية ومال يؤديهِ . وفي قصبة ارمينية الوسطى فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة وبيوتها في الشتاء يضرب المثل ولها البحيرة التي ليس لها في الدنيا نظير (بحيرة وان) يجلب منها السمك المعروف بالطريخ الى سائر البلاد ولقد رأيت منهُ يبلغ وبلغني انهُ يكون بغزنة وبين الموضعين مسيرة اربعة اشهر وهي من عجائب الدنيا . قال ابن الكلبي من عجائب الدنيا بحيرة خلاط فانها عشرة اشهر لا يكون فيها ضفدع ولا سرطان ولا سمكة ثم يظهر بها السمك مدة شهرين في كل سنة . انتهى

وهكذا كلامهُ على سائر مدن ارمينية فان بعضها كان عامراً في زمانهِ وبعضها كان خراباً وكان في بعضها ملوك مستقلون

وساءت حال ارمينية في عهد السلاجقة لانها صارت سكة للقبائل الرحل تمرُّ بها ذاهبة الى مروج اسيا الصغرى فخربت وهجرها اهل الزراعة ثم تمَّ خرابها على يد تيمورلنك واضطر جمهور كبير من الارمن حينئذٍ الى سكن الجبال العالية والدخول في ذمة الاكراد . وهاجر البعض الى كبدوكية وكليكية في اسيا الصغرى حيث اقام بغراتد روبن سنة ١٠٨٠ واسس امارة صغيرة صارت بعد ذلك مملكة ارمينية الصغرى وبقيت مستقلة ٣٠٠ سنة وقد عاونت

الصليبيين في زحفهم على فلسطين وبقيت في عزتها الى ان حاول صاحبها ان يغير معتقد اهلها ويضمهم الى الكنيسة الرومانية فانقسموا في ما بينهم وضعف شأنهم فغزاهم سلطان مصر واستولى على بلادهم وجعل سيس وطرسوس وادنه واياس ولاية واحدة واقرّ عليها الامير موسى بن مشهري وكان ذلك سنة ١٣٧٥ للميلاد (٧٧٧ للهجرة) ثم جاء تيمورلنك كما تقدم وخرب البلاد لكن خلفاءه احسنوا سياسة الرعية فعاد رئيس الارمن (الكاثوليكس) الى اشمزين سنة ١٤٤١ بعد ان اضطرّ ان ينتقل منها في زمن السلاجقة الى سواس ثم الى ارمينية الصغرى

واستولى السلطان سليم على ارمينية سنة ١٥١٤ كما ذكرنا في تاريخه وسلّم ادارتها الى ادريس المؤرخ وهو كردي من بتليس فقسمها الى سناجق وولى على معظمها رجالاً من الاتراك وعلى جبالها رجالاً من اهلها فصلحت حالها وقوي شأن الاكراد فيها

واجتاح الفرس ارمينية سنة ١٥٧٥ وغزاها الشاه عباس سنة ١٦٠٤ ونقل الوفاً من الارمن الى عاصمته اصفهان وكان قد مصّرها جديداً . واستولى الفرس على اروان سنة ١٦٣٩ وبقيت في حوزتهم الى سنة ١٨٢٨ حينما انتقلت الى الروس . ثم اخذت روسيا باطوم واردهان والقارص على اثر حربها الاخيرة مع تركيا . وظلّ امراء الاكراد كالمستقلين في ارمينية الى سنة ١٨٣٨ فضعفت شوكتهم حينئذٍ وقاموا لاستردادها سنة ١٨٤٣ بقيادة بدرخان بك وسنة ١٨٨٠ بقيادة الشيخ عبدالله الكردي ولكن الدولة العلية ارغمتهم على الطاعة

ولما جلس السلطان عبد الحميد على تخت الملك كان حال الارمن اصلح مما كان في عهد اسلافه من آل عثمان ووعدت الدولة في عهدة سان ستفانو ان تصلح حال سكان ارمينية وتمنع عنهم جور الاكراد والشراكسة واعادت هذا الوعد في عهدة برلين . ثم جاء الاتفاق على قبرص بين الدولة العلية وانكلترا وفيه وعدت الدولة بادخال الاصلاحات اللازمة لحماية المسيحيين وغيرهم من رعاياها في ولايات اسيا الصغرى ولم يذكر الارمن صريحاً في هذا الاتفاق لكنهم فهموا ان انكلترا تعهدت بحمايتهم او بحمل الدولة العلية على الاعتناء بهم بنوع خاص فذلك واهمال روسيا امرهم جرّ عليهم المحن كما سيجيء